الفصل الرابع

المحاكمة الثانية

من فوق المنابر

وهى المحاكمة التى تولاها نفر من خطباء المساجد، ومن يشايعونهم ممَّن تخصصوا فى إلقاء المواعظ الدينية، أو الفتاوى الفقهية أو غيرها من الكتابات الدينية بصفة عامة.

مقدمة:

والحقيقة أننا سوف نجد أنفسنا أمام طوائف مختلفة ممَّن يمكن أن ندعوهم برجال الدين، مع إبداء ملاحظة هامشية فحواها أنه لا يوجد فى الإسلام من يمكن أن تطلق عليه «رجل دين» لبساطة الإسلام وسماحته، ولأن كل مسلم مطالب بأن يُلمَّ بأصول دينه، ولمن شاء أن يتوسع فيها فالمراجع متاحة أمامه وميسورة، بل وإنه ليكفى المسلم أن يجعل ملاذه ومرجعه القرآن الكريم، كما هو الشأن بالنسبة للغالبية العظمى من المسلمين ليمدَّه بأوفى زاد يتصل بحقيقة الإسلام، وبأسسه ومبادئه بل وبما تضمنه القرآن من أحكام للعبادات والمعاملات.

ومن ناحية أخرى، فإنه ليس لمن يعمل بفقه الإسلام زى موحد، فله أن يلبس ما يشاء، وإن كانت نسبة كبيرة تحرص على ارتداء الزىّ التقليدى للمشايخ، فإن هذا لا يمنع من أمرين: لا يمنع من أن نسبة لا يستهان بها من العلماء المتخصصين فى الدراسات الإسلامية حتى بلغوا مرتبة الأستاذية يؤثرون «الزى» الشائع ولا يرتدون العمامة. كما أن ذلك لا يمنع أيضا من وجود أعداد غفيرة من بين من يرتدون العمامة ليسوا متخصصين فى الدراسات الدينية أو أن صلتهم بها لا تجعل منهم أهل علم بها.

ونخرج من هذه الملاحظات الأولية إلى أننا سوف نحاول أن نعدِّد الطوائف التى تناولت الرواية تناولا دينيا، وسمح البعض منهم لنفسه أن يتحدث عنها من فوق منابر الخطبة التى خصصت للوعظ والإرشاد وتفقيه المسلمين بأمور دينهم، كما أن بعضهم

الآخـــر اختار منبرا مختلفـــا هو منبر الصحافة التى توصف بأنها دينية، وكلا المنبرين له صلـــة وثيقة بالآخر.. وثمة نفـــر ثالث أصدر كتبا قائمة بذاتها تنـــاول فيها ذات الرواية بالتفسير الذى يستند إلى الدين..

والملاحظ أن هؤلاء قد مالت الأغلبية من بينهم إلى التفسير الذى يأخذ بغلبة السوء على الروايـــة، بل إن البعض منهم ليصم مؤلفها بالكفر والإلحـــاد، ويطالبه بالتوبة وإلاّ فليوقّع عليه حـــدّ الردة..

ومـــع ذلك فقـــد كان هناك نفر من هؤلاء، مالوا إلى الاعتـــدال، بل إن بعضهم قد وصل بالرواية إلى حد الثناء عليها والإشادة بها دون أن يخرج ذلك البعض عن حدود الدين، أو يستهينوا باحتمال قيام تفسير دينى..

وقد جمعـــت منابر الخطابة ومنابر الصحافة ومنابر الكتابـــة والتأليف كل هؤلاء.. وها نحن نستعرض معظم ما قالوا فى حدود ما استطعنا استقصاءه، وهو وإن كان استقصاء غير كامـــل إلا أنه أوفى ما أمكننا وهو على كل حال يلقى نظرة شـــاملة على الموضوع ومختلف اتجاهات تناوله الدينية:

فتوى «عمر عبد الرحمن»:

مما يذكر أنه فى أبريل ســـنة ١٩٨٩م كان أحد زعماء الجماعة الإســـلامية البارزين وهو الشيخ «عمر عبد الرحمن» – المسجون حاليا فى أمريكا مدى الحياة لاتهامه بتدبير جرائم إرهابيـــة داخـــل الولايات المتحدة – كان هذا الشـــيخ المتطرف قد أصـــدر فتوى بإهدار دم «نجيب محفوظ»، وقد نشـــرت جريدة الأنباء الكويتية هذه الفتوى فى حديث مع الشـــيخ «عمر عبد الرحمن» حيث قال الشيخ بالنص:

(إنه من ناحية الحكم الإسلامى، فإن «سلمان رشدى» ومثله «نجيب محفوظ» مرتدّان، وكل من يتكلم عن الإســـلام بســـوء فهو مرتد، والحكم الشـــرعى أن يستتاب، فإن لم يتب وجـــب قتله، ولو نفذ هذا الحكم فـــى «نجيب محفوظ» عندما كتب «أولاد حارتنا» لتأدب «سلمان رشدى»).

وقد ظلت هذه الفتوى التى أصدرها الشيخ «عمر عبد الرحمن» تعمل عملها حتى انتهت بمحاولة اغتيال «نجيب محفوظ» ســـنة ١٩٩٤م (يراجع «رجاء النقاش» – «أولاد حارتنا» بين الفن والدين – ص ٧٠ ، ٧١).

من فوق منبر جريدة النور:

«فى يوم الأربعاء ٢٢ فبراير ١٩٨٩م، صدرت صحيفة «النور» الإسلامية، وقد شغلت هذه القضية أكثر من نصف العدد المكوَّن من عشر صفحات من القطع الكبير للصحف. وقد يبدو هذا أمرا طبيعيا ومفهوما بالنسبة لجريدة تصف نفسها بأنها جريدة إسلامية، ولكن الغريب حقا هو أن هذه الجريدة ربطت بين «سلمان رشدى» و«نجيب محفوظ» وعدَّتهما وجهين لعملة واحدة، بل عدَّت الجريدة أن «سلمان رشدى» هو من تلاميذ رواية «نجيب محفوظ» «أولاد حارتنا» الذين باعوا أنفسهم للشيطان على حدّ تعبير الجريدة، ونشرت الجريدة مقالا طويلا استغرق الصفحة الأخيرة بأكملها مع بقية للمقال فى صفحة داخلية، وكان هذا المقال بتوقيع كاتب اسمه «مصطفى عدنان» وهو الاسم الذى تبين أنه اسم مستعار للكاتب الصحافى «رائد العطار»، وهذا ليس مجرد اجتهاد قابل للخطأ بل هو حقيقة ثابتة.. على أن «رائد العطار» نفسه لم يكن ينفى أنه صاحب تلك المقالات، وكان الكاتب يفخر بنفسه وبحملته على «نجيب محفوظ».

فى مقال «مصطفى عدنان» أو «رائد العطار» يقول الكاتب ساخرا ومحرضا: (إننى لن أغضب بعد أن نزل «نجيب محفوظ» منذ أيام ليناضل مع توأم أولاد حارته مؤلف آيات شيطانية، فقد عذرته فى دفاعه عن «سلمان رشدى» لأن هذا أى «سلمان رشدى» إنما يطرح دم «نجيب محفوظ» للإهدار. ومعنى هذا الكلام أن «نجيب محفوظ» يدافع عن نفسه فى دفاعه عن «سلمان رشدى») (يراجع «رجاء النقاش» ص ٨٧، ٨٨).

ويعلق «رجاء النقاش» على ذلك بقوله: (وهكذا عدَّ الكاتب أن مناداة «نجيب محفوظ» بمواجهة الفكر بالفكر هى دفاع عن «سلمان رشدى») ويدافع «رجاء» عن «نجيب» بقوله: «وهذا تزييف صريح ومتعمد لرأى «نجيب محفوظ»، لأن رأى «نجيب محفوظ» ليس فيه أى تأييد «لسلمان رشدى»، بل هو دعوة إلى الحوار بين الأفكار، والابتعاد عن العنف واستخدام السلاح، فلن تتغيرَّ الأفكار بالمسدسات والقنابل، وإنما تتغيرَّ الأفكار بمعارضتها عن طريق أفكار أفضل منها، والكشف عن عيوب الأفكار الخاطئة بالحجة والبرهان» (ذات المرجع – ص ٨٨).

خطب «الشيخ كشك»:

وقد تلقف زعماء التطرف الإشارة، وكانوا – كما يذكر «رجاء النقاش» – فى تلك الأيام سنة ١٩٨٨م، ١٩٨٩م فى عز قوتهم، وبدأت منابر المساجد التى كانوا يسيطرون عليها

تبث سمومها، وكان من أكثر المهاجمين «لنجيب محفوظ» فى خطبة الجمعة من كل أسبوع الشيخ «عبد الحميد كشك» الخطيب الشعبى المشهور فى أحد مساجد القاهرة.

وكانت خطبه يؤمها نفر كبير وجمهور عريض من المصلين، وكانت الشوارع حول المسجد تضيق بالمصلّين، فضلا عن أن تلك الخطب كان يجرى تسجيلها وطبعها وتوزيعها أولا فأول، فى شرائط وكانت تلك الخطب التى خصصها لمهاجمة «نجيب محفوظ» خطبا عديدة وصفه فيها بالكفر والزندقة، والإلحاد، وكان يصف فيها «نجيب» بكل نقيصة، ونسب إليه مساوئ الأرض كلها.

* * *

وفى الواقع أن «الشيخ كشك» كانت له مواهب فى إلقاء خطبه تجذب الكثيرين إليه، وتجعلهم مفتونين بسماع خطبه، ومنهاجه فى صياغتها، وطريقته فى إلقائها، وأسلوبها، وعباراتها.. فهو يختار من الموضوعات أشدّها حساسية ، وقربًا من عقول الجماهير، سواء كانت موضوعات دينية أو غير دينية. كان له صوت جهورى جذاب، ألفاظ واضحة، سلامة نطق، وقع مؤثر فى الأذان، وأداء متميز يعلو ويهبط، يشتدّ ويرقّ، يغلظ ثم يلين.. ولكنه متدفّق فى جميع الأحيان.. أما عباراته وتعبيراته فمنمقة، موزونة، بليغة وإن عمد إلى استعمال التعبيرات الجارية فى بعض الأحيان.. وهو كثير الاستشهاد بالشعر، واستعمال المترادفات، والتوقف بين الحين والآخر ليصلّى ويسلم على رسول الله مرددا مدائحه، وصفاته ثم يعود إلى موضوعه.. وقد يقطعه بعبارات يناجى بها الرب الكريم ويستثير بها مشاعر الجمهور، ثم إنه يحسن التصوير، ويختار العبارات المؤثرة ولديه مقدرة فائقة على أن يأسر جمهوره طوال خطابه الذى لا يمل أحد من سامعيه منه.. وبهذا كله كان يمكنه أن يسيطر على جمهوره، ويشغله حتى عن نفسه.

ولم يقف الشيخ بخطبه عند حد تسجيل خطبه وإذاعتها فى شرائط، بل إنه جمعها بين دفتى كتاب مازال متداولا حتى الآن عنونه بعنوان لافت هو: كلمتنا فى الرد على «أولاد حارتنا». وسوف نفرد له موضعا بين هذه المنابر المختلفة، مع سواه من عروض الرواية بين دفتى أكثر من كتاب.

والواقع أن الشـيخ «عبد الحميد كشـك» لم يكن وحده فارس حلبة منابر المساجد، فقد كان له أقران آخرون فى مسـاجد مختلفة سـايروا «الشـيخ كشـك» فى تخصيص خطبهم المنبرية للهجوم على الرواية على نحو يصل بهم إلى حد تكفير الكاتب.. وكانوا يجدون من يستمع إليهم منجذبا ببراعة الإلقاء، وسلاسة الحديث، والمقدرة على التأثير..

والشيخ «عمر عبد الرحمن»:

وقد أشرنا من قبل إلى فتواه، فقد كان يواصل هو الآخر توجيه قذائفه وهجماته من فوق أحد منابرمسـاجد الفيوم حيث كان «الشـيخ عمر» يقيم هناك فى ذلك الوقت، وقد أصدر الفتوى التى سـبق لنا أن أشـرنا إليها فى مطلع هذا الفصل – ونشرتها جريدة الأنباء التى تصدر فى الكويت بأن «نجيب محفوظ» مرتد عن الإسـلام.. ثم إنه واصل هجومه من فوق المنبر الذى انفرد به فى الفيوم، وراح يردِّد من فوقه ذات المقولات التى سـجلتها نقلا عنه جريدة الأنباء الكويتية.. والتى تدعو إلى قتله إن لم يتب ويكفّر عن ذنبه.

وأمثال هؤلاء كثيرون:

والواقع أن أمثال هؤلاء كانوا كثيرين سـواء فـى العلن أو فى الخفاء.. ففى العلن تمثل هؤلاء فى العديد من خطباء المسـاجد، وأهل الفتوى الذين يتطوعون بها وينتهون فيها إلى تكفير الرواية ومؤلف الرواية، وكل من لا يشايعهم فى أقوالهم. وكانت تلك الفتاوى تتردد فى الخطب والأحاديث الدينية فى يسر وبساطة، وفى أقوال مرسلة.. حتى لقد صار القول بأن رواية «أولاد حارتنا» رواية كافرة لمؤلف كافر قولا شـبه مسـلم به لكثرة ما تردد على ألسنة من يصفون أنفسهم بأنهم رجال الدين، وأهل الفقه، وعلماء الشريعة..!!

أما فى الخفاء فقد تسـربت تلك الفتوى إلى التنظيمات السـرية التى تتشكل وتعمل فى الخفـاء، والتى تضع الخطط، وتدرب أعدادا غفيرة للقيـام بها وتنفيذها على النحو الذى تحقق بالفعل، وظهرت آثاره بارزة ومفزعة فى محاولة اغتيال «نجيب محفوظ» على النحو الذى سـوف نفصله فى الفصل التالى.. وقد ثبت أن أولئك المدربين كانوا مسـلوبى الإرادة، واقعين تحت تأثير قادتهم بحيث لا يستسيغون أن يخالفوا لهم أمرا بأى حال.

غير أن الجامع بين الفريقين هو التسـرع فى إبداء الرأى، وأخذ الأمور بظواهرها وصّم الآذان بصفة نهائية دون السـماع لوجهات النظر الأخرى، حتى ليكاد من يناقشـهم يصل إلى يقين بأنهم لا ينظرون إلا إلى داخلهم ويحجبون النظر والفكر عن سواهم..!

وتبقى لنا كلمة:

ومـع هذا السـيل من الفتاوى المصبوغـة بالصبغة الدينية، والتـى ألقيت على عجل، وقيلت فى تسرع، دون أن تقوم على مناقشة الرأى والرأى الأخر أصبح الحكم بالتكفير أمرا مسلما به بالنسبة للراوى وللرواية..

ولكننا نسمح لأنفسنا بأن نشذ عن هذا التيار الذى أصدر حكمه النهائى، وقضى قضاءه البـات دون مشـاورة أو مداولة أو تمحيص.. ونأتى نحن لنرفـع صوتنا الضعيف بين تلك الأصوات الزاعقة التى تكاد من قوتها وشدتها تصمّ الآذان فلا تتركها قادرة على أن تسمع قولا، أو تفقه رأيا.

ولعلنا نجد فيما كتبه «رجاء النقاش» خير بداية.. فقد كتب (ص ٩٦ من المرجع سالف الذكر) يقول:

«لقد كتب «نجيب» روايته، وقال فى تفسـيرها إنه لم يقصد بها أبدا أن يسئ إلى الدين أو إلى الذات الإلهية أو إلى أنبياء الله وطلب «نجيب» من الأزهر أن يحكم له أو عليه، ولكن الأزهر اتخذ موقف الصمت، وهو موقف أقل من مقامه، خاصة أن الرواية تحوّلت إلى «فتنة» كادت دمـاء «نجيب محفوظ» تسـيل فيها، وهى دماء لهـا حرمتها مثل أى دماء أخرى، ومنع الفتنة واجب على كل قادر على ذلك، والأزهر ورجال الأزهر هم فى مقدمة القادرين».

نعـم.. هناك تقريران أعد أولهما واحد من الباحثين بمجمع البحوث الإسـلامية وأعد الثانى من وقّعه على أنه أمين عام المجمع.. ولكن أيا ما كان الوضع فإن تلك آراء فردية، كانت نتيجة اجتهادات شـخصية، شأنها شـأن من أصدر الفتاوى بالتكفير، ومن تعرض للرواية من فوق منبر مسـجد أو أكثر.. ولكن ذلك كله لم يكن نتيجة دراسـة واعية متأنية يشـارك فيها أكثر من صاحب رأى وبخاصة وأنـه كان هناك من علماء الدين من رأى فى الرواية آراء مغايرة بل ومعارضة لوجهات النظر السالفة، ممن سنعرّض لهم فى موضع تال.

ثم إن تلك الفتاوى والآراء والخطب أصابها الخطأ ونالها الانحراف من ناحيتين:

الناحية الأولى: أن أيا من المفتين لم يسع إلى أن يعرف رأى المؤلف نفسه، أو أن يسأله عـن حقيقـة مقاصده.. أو علـى الأقل يعرض للآراء التى قيلت مخالفـة لرأى من أفتى أو يستمع إلى وجهات نظرهم.. لم يفعل شيئا من ذلك، ولم يستمع إلا إلى صوت نفسه، التى كثيرا ما تكون فى بعض الأحيان أمّارة بالسوء وبخاصة إذا ما ازدهاها موقف الخطيب ذى الجمهور العريض المفتون بخطابته.. والمعبّر عن ذلك بمختلف صور التعبير.

والناحيـــة الثانيـــة: أن أصحاب هذه الآراء والفتاوى أخذوا بتفســير وحيد، بناه كل منهم على ما استخلصه من شواهد ودلالات، وهو تفسير يميل إلى التضييق، بل وإلى الجزم بأنه الحق الذى لا يأتيه باطل. فى حين أنه قول بشر ممن يجوز عليه الصواب كما يجوز الخطـأ.. وهو اجتهـاد قد يُوفـق صاحبه إلى الحق كما قد ينحـرف عن الحق ويبتعد عنه درجات ودرجات.

وعلـى ذلـك فإنه يحق لنا أن نقـدِّر أن كل تلك الفتاوى والمقولات لهـا اعتبارها ولها أهميتها، ولكنها ليست الرأى الوحيد، أو القول الفصل فى الموضوع، فهناك – من بعد – آراء أخرى، وتفسيرات مختلفة لها سندها ولها وجاهتها..

ومن هنا حق لنا أن نقول: تريثوا أهلَ الفكر، ولا تسـارعوا إلى القول بأن لديكم القول الفصـل، ولا تبنـوا علـى ذلك ما بنيتـم من نتائج سـيئة، كان منها التكفـير، والوصف بالإلحاد، واسـتحقاق كاتب الرواية للقتل.. فإن مثل تلك الأقوال المتسـرعة – ولن أسارع بوصفها بالخاطئة والمنحرفة – هى التى أدت إلى حادث محاولة اغتيال «نجيب محفوظ»، وهى المحاولة التى كانت تنفيذا لقضاء سـرى أصدر حكمه بليل، وبعث بمن يقوم بتنفيذه من شـياطين الإنس بعد أن زوَّدهم بالعتاد من الأفكار بل واليقين بأنه ينبغى على المجاهد الطاعة العمياء دون نقاش أو إبداء أية آراء..! ومن هنا حق لنا أن نقرر أن من حكم عليهم بالإعدام سـتظل دماؤهم معلـقة فى رقاب من بثوا فى نفوسـهم تلك العقائد الفاسدة، ومَن دفعوهم دفعا إلى الإقدام على تلك الأفعال وما هو من قبيلها.

* * *